الحمار

حتى لو أسقطنا من حسابنا القسوة التي يعامل بها الإنسان هذا الحيوان الأليف على وجه التحديد، والتي يمكنها بمفردها أن تملأ ملفاً كاملاً، علماً بأنه ما من داعٍ لإسقاط الحديث عن هذه القسوة، إلا خشية الإقرار بما يمكنها أن تكشفَ عنه..

وحتى لو أسقطنا أيضاً الإنكار الذي يعامل به هذا الحيوان خاصة في المجتمعات التي لم تعد زراعية فلم تعد بحاجة إليه ولم تصبح صناعية في جوهرها لتعرف ترف التعامل مع الحيوان برفق واهتمام، كما هو حال المجتمع في مدننا العربية، حيث لم يبقَ من الحمار غير الاسم. والاسم كما هو معروف منذ قرون، مرادف للشتيمة!

يكفينا أن ننتبه إلى أن حضور الحمار في الحياة اليومية للإنسان استمر أكثر من خمسة آلاف سنة متواصلة.. أي مدة كافية لكي يسهم هذا الحضور في إضافات كثيرة إلى المخزون الثقافي للإنسانية، وهذه الإضافات انتقل إليها سوء طالع مصدرها، فبقيت في قسم كبير منها إلى جانبه في الظل. وهذا ما يحاول عبود عطية أن يسلّط عليه الضوء في هذا الملف.

الحمار

يُعدُّ الحمار نوعاً مستقلاً تماماً عن الحصان لا فصيلة منحطة من الخيل كما كان يُعتقد

عندما اجتاز نابليون بونابرت جبال الألب في حملته على إيطاليا تلقَّى الرسَّام الفرنسي جاك لوي دافيد طلباً من شارل الرابع ملك إسبانيا كي يرسم هذا العبور في لوحة. ورسم دافيد بالفعل لوحة رائعة، نرى فيها نابليون، الذي كان يحمل لقب القنصل الأول، على صهوة جواد أبيض ينتصب على قائمتيه الخلفيتين فوق الصخور الجبلية.. عُدَّت تلك اللوحة عن جدارة آنذاك تحفة الدعاية السياسية، حتى أن محتَرَف دافيد رسم أربع نسخ منها لأربعة زبائن مختلفين. ولكن بعد سقوط إمبراطورية نابليون عام 1815م، لم تعد هناك حاجة إلى الدعاية السياسية، واتسع المجال للحقيقة التاريخية، فرسم الفنان بول دي لاروش سنة 1848م الصورة الواقعية التي نرى فيها بونابرت في معطف شتاء على صهوة.. بغل. والبغل كما هو معروف وليد تناسل حمار وفرس.

قبـل عصر نابليون بنحو نصف قرن، أي في منتصف القرن الثامن عشر كتب العالـم الطبيعي الكونت دي بوفون بحثاً حـول «الحمار» في الدورية العلميـة الشهيرة «التاريخ الطبيعـي العام والخاص». وكان هذا البحث الأول فـي التاريـخ الـذي يقـول إن الحمار يعـدُّ نوعاً مستقـلاً تماماً عن الحصـان وليس فصيلة منحطة من الخيل كما كان يعتقد من قبل. وهذا مـا أكده العلم لاحقـاً بسهولة. ومما كتبـه دي بوفون فـي المقالة أنه «لو تـم إيلاء الحمار الاهتمام نفسه الذي يلقـاه الحصان، ولو أتعبنا أنفسنا بتربيته كمـا نربي الخيول، فما من شك في أن الحمار سيكون قادراً على أداء أمـور ليست مجهولة إلا لأنه بين أيـادي أناس قساة من ذوي الطباع الخشنة».

ولكـن هذا الإنصاف العلمـي، الذي دعمت صحته تجـارب حديثة عديدة، يبقـى أصغر بكثير من أن يزعزع صورة الحمار في الوجدان الشعبي والعام الـذي صيغ خلال ألـوف السنين، والـذي عندما يتجاوز إنـكار الحمار في لحظـات الحاجـة إلى خدماتـه، فإنه يتطلع إليـه بدونية واحتقـار يلامس العداء لما فيه من قسوة.

الإنـكار نفسـه المتمثل في تزييف التاريـخ أو الواقع على أيـدي الرسَّام دافيد، هو نفسه الـذي نلحظه في المكتبات المنتشرة في أسواقنا. ففي كل واحـدة منهـا عشـرات الكتب التي تتحـدث عن الخيـول، ولكن على المـرء أن يفتش في عشر مكتبـات ليجد كتيباً عن الحمـار.. ولو فتحنا «الموسوعة العربية العالمية»، على سبيل المثال المحدد الذي يمكن للكل أن يتلمسـه، لوجدنا أن بند «الحمار» يشغل نحو نصف صفحة فقط، في حيـن أن بند «الحوت»، على سبيل المثال أيضاً، يشغل 15 صفحة.. علماً بأن ليس للحوت أي دور يذكر في حياة الإنسان مقارنة بالدور الذي لعبه الحمار ولا يزال.

علـى كل حال، يبقى الإنـكار -بمعنى تجاهل هذا الحيـوان- أقل سوءاً مما واجهـه الحمار في تعامل الإنسان معـه. فخلال أكثر من خمسة آلاف سنة، كان الحمـار خـادم الخدم، وعاملاً عنـد المُزارع العامل بـدوره عند سيد أعلـى منه شأناً. ولذا، كان من الطبيعي أن يتركَّز عليه كل الاضطهاد الذي يلقاه سيده المباشر من قبل سيده الأعلى.

فمن المدهش -كما يظهر من بعض النصوص اللاحقة في هذا الملف- أن تكـون المعاملة الفظة والغليظة حتى حدود الشراسة التي عومل بها الحمار أيام لوكيوس أبوليوس في الإمبراطورية الرومانية، هي نفسها التي شاهدها توفيـق الحكيم في مصر خلال القرن العشرين، ويلحظها أي شخص اليوم في أية بيئة زراعية.

ولأن الإنسـان منـذ نشوء الحضـارات يرى في القـوة المضافـة إلى جملة صفات خبيثة وسيلة لتغيير مسار الأوضاع غير المرضية، فقد رأى في قدرة الحمـار على التحمل واستكانته «غباء». حتـى تحول اسمه على مرّ العصور فـي معظم لغات العالم إلى شتيمة، تطلق في وجه كل من يفتقر إلى الذكاء أو حُسن التصرف. والمفارقة أن هذا الانطباع عن «قيمة» الحمار تكوَّن أولاً عند الخدم والمزارعين عن خادمهم، وانتقل منهم إلى سادتهم وصولاً إلى أعلى مستويـات الأدباء والمثقفين الذين اقتنعوا بهـذا الرأي وتبنوه. وكان هـذا الانطبـاع يلقى دومـاً ما يعززه، ونـادراً ما لقي ما يفنـده خلال تاريخ الحمار الطويل.

لو أتعبنا أنفسنا بتربية الحمار كما نربي الخيول، فما من شك في أنه سيكون قادراً على أداء أمور ليست مجهولة، إلا لأنه بين أيادي أناس قساة من ذوي الطباع الخشنه...

لوحة دافيد المزيّفة للحقيقة

لوحة دي لاروش الأمينة للحقيقة

بعض المحطات الكبرى في تاريخ الحمار

تعود كل الحمير المدجنة في العالم اليوم إلى فصيلتين اثنتين من الحمير البريـة التي كانـت تسرح في القـرن الإفريقي وبلاد النوبـة. ولذا كان من الطبيعـي أن يكون فراعنـة النوبة أول من روَّض هـذا الحمار في وقت غير محـدد بدقـة خلال الألـف الرابع قبل الميـلاد، بدليل أن مقبـرة أمحوتب التـي تعود إلى حوالي 3000 سنة قبل الميلاد تتضمن رسوماً جدارية تظهر حميراً مستخدمة لنقل البضائع والركوب أيضاً...

وقرابـة العام 1800 قبل الميلاد، خرج الحمار مـن وادي النيل عبر أسواق دمشـق التي كانت مركـزاً تجارياً مهمـاً، إلى كافة أصقـاع العالم القديم، وبسرعـة كبيرة قياساً إلى الفترة الطويلة التي بقي فيها في بلاد النوبة. إذ إن قانـون حمورابي الذي وُضع في العـراق بعد ذلك بثلاثمائة عام، تضمَّن بنـداً يقضي بإعدام من يسرق حمـاراً. فبسبب قدرات هـذا الحيوان على السيـر فـوق الطرق الوعرة، انتشـر في الجبال، وبسبـب قدرته على تحمل العطش والحر، انتشر في كل الواحـات الصحراوية من شمال إفريقيا إلى الصين.

احتـل الحمار مكانـاً (لا مكانة) لم يحتلـه أي حيوان آخر فـي الحضارات الزراعية. استخدم في النقل بأوسع معاني الكلمة: نقل البضائع والأشخاص، وجرَّ العربات، ونقل الحركة في الطواحين.. وصولاً إلى الإمدادات العسكرية لجيش الإسكندر المقدوني في حربه مع ملك الفرس داريوس، ليدخل بذلك معترك الحياة العسكرية أيضاً التي لن تنتهي إلا في القرن العشرين.

وحتـى أيام الإمبراطورية الرومانية، كان هناك حمار من فصيلة مختلفة غيـر إفريقيـة الأصـل، وهـو الحمـار الأحمر الـذي كان يستوطـن آسيا الوسطـى (ونرجِّـح استطراداً أن اسـم الحمار بالعربية يعـود إلى اللون الأحمر-البنـي الـذي كان يميِّـز هذا الحيـوان بالذات). ولكـن الحمار الأحمـر كان صعب المراس جداً، وترويضـه غير مضمون النتائج دوماً.. ولذا، بمجرد وصول الحمـار الإفريقي إلى روما، تخلوا تماماً عن الحمار الأحمـر لصالحـه، إذا افترضنا أنـه كانت للحمار الإفريقـي «مصلحة» فـي هذا التبنـي.. أما الحمار الأحمر فهو اليوم مثلـه مثل معظم الحمير البرية.. مهدد بالانقراض.

وخـلال نحو ألفي عام، لم يطـرأ أي تغيير على عالم الحمار، سوى انتشاره فـي المزيد مـن أصقاع الدنيا، ولم تطـرأ غير تعديـلات طفيفة على دوره التقليدي في الحياة الزراعية.

فالحميـر التي نقلهـا معه كريستـوف كولومبوس إلى أمريـكا (أربعة ذكور وأنثيـان)، تزاوجت مع الخيول لتلد البغـال التي استخدمها الغزاة الإسبان في استكشاف القارة الجديدة. وبعد استقلال أمريكا استورد الرئيس جورج واشنطـن أول دفعة من الحمير إلى أمريكا. ولكـن الحمار لم يحتل مكانته الفعليـة في الحياة الأمريكيـة إلا خلال القرن التاسع عشـر، عندما فضله المنقبـون عن الذهب على الحصان والبغل، لقدرته على حمل المعدات في الأراضي الوعـرة، وطواعيته التي تُغني عن اقتياده بحبل، إذ إنه يتبع سيده من تلقاء نفسه. ولكـن إنشاء السكك الحديد في النصف الثاني من القرن نفسـه، دفع بأصحاب الحمير إلى إطلاقها فـي البراري والصحاري، حيث لا يزال حفدتها يتناسلون حتى اليوم.

وداعته لا تفسّر القسوة التي يُعامل بها

بدءاً من سبعينيات القرن الماضي، وفي ما يشبه صحوة الضمير، تكاثرت جمعيات الرفق بالحمار..

وعلى الرغم من أن الدور الأول المُناط بالحمار لا يزال هو نفسه كما كان قبل خمسة آلاف سنة، والمعاملة التي يلقاها كذلك.. شهد القرن العشرون ما يمكننا أن نعده الاضطراب الأكبر في تاريخ الحمار.

والواقع أن بوادر هذا الاضطراب ظهرت قبل نحو قرنين أو أكثر، كما أشرنا سابقاً، عندما أكد العلم أن الحمار ليس حصاناً منحطاً، وعندما أجرى علماء الحيوان دراسات مقارنة أظهرت أن لهذا الحيوان الأليف ميزات تفوق ما هو مرسوم في الأذهان حوله. ولكن قبل أن تثمر هذه النظرة العلمية الجديدة إلى الحمار أي شيء، جاءت النهضة الصناعية لتعزِّز إنكاره وإشاحة النظر عنه، ولتضرب حتى وجوده في الصميم. ففي فرنسا مثلاً انخفض عدد الحمير من نحو 800,000 رأس إلى 13,000 رأس خلال قرن ونصف قرن. وخاصة مع مكننة الزراعة بعد العام 1945م، التي أوصلت قطيع الحمير إلى شفير الانهيار التام. الأمر نفسه ينطبق على كل المجتمعات الصناعية في أوروبا الغربية وأمريكا، من دون أن يعني ذلك انهياراً عالمياً، طالما أن معظم دول العالم لا تزال في طور النمو، وتعتمد على الزراعة بوسائلها التقليدية للعيش والبقاء.

أما التحول الكبير في كل تاريخ الحمار، فقد أطل برأسه بدءاً من سبعينيات القرن الماضي، عندما أدى انتشار مشاعر الرفق بالحيوان إلى ظهور جمعيات خاصة بالحمار تُعنى به وتدعو إلى تلطيف نظرة الإنسان إليه. وفيما يشبه صحوة الضمير، تكاثرت هذه الجمعيات بسرعة مذهلة، ففي فرنسا تجاوز عددها العشرين، إضافة إلى إنشاء متحف خاص هو «متحف الحمار» في «ساسي لوغران»، كذلك تأسست جمعيات ومنظمات للشأن نفسه في كل من ألمانيا وأستراليا والولايات المتحدة وكندا والدنمارك وبريطانيا ونيوزيلنده وهولندا وإيطاليا وإيرلندا واليونان وسويسرا.. وفي حالات كثيرة، خرج الحمار عن وظيفته التقليدية في هذه الدول الصناعية والغنية، وتحوَّل إلى حيوان ترفيه للأطفال، وحيوان منزلي تقتصر أحياناً مهامه على الحراسة، أو حتى تزيين الحديقة.

وحيثما لا يزال الحمار يؤدي وظيفته التقليدية في الدول المتقدمة، فإن شروط عمله تحسنت نسبياً. ففي جزيرة هيدرا اليونانية، على سبيل المثال، التي يسكنها الأثرياء، فإن الحمار هو وسيلة النقل الوحيدة الموجودة في الجزيرة، ولا يوجد من المركبات الآلية غير سيارة واحدة لجمع النفايات.

وهكذا، بعدما كان يمكننا أن نقرأ حتى في العام 1908م تسويفاً «علمياً» للقسوة تجاه الحمار، مثل ذلك الذي جاء على لسان عالِم الحيوان البروفسور إميل تياري والقائل: «مع البغل والحمار يجب أن تضرب بقوة، لأنهما لا يمتلكان حساسية الحصان، ولا يشعران إلا عندما تسبب لهما ألماً..» وهو ما يتماشى مع المفاهيم الشائعة عند أكثر الفلاحين تخلفاً قبل عشرين قرناً.. تبدلت الأحوال ولو قليلاً، ولو في بعض الأماكن فقط.

الحمار اليوم..
التقرير المخجل

يقـول تقرير أصدرته منظمة الزراعـة والأغذية الدولية (الفـاو) إن عـدد الحميـر فـي العالم يناهـز اليوم 44 مليون رأس (يتضمن هذا الرقـم البغال أيضاً)، وتحتل الصين رأس قائمة الـدول في امتلاك الحمير بنحو 11 مليـون رأس، تليها الحبشة، والمكسيك، ومن ثم منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

ويضيـف التقريـر أن 95٪ مـن حميـر العالـم لا تـزال تُستخـدم فـي المهام نفسهـا التي أنيطت بهـا منذ نحو 6000 سنـة، أي النقـل وجـر العربات، وتوليـد البغال، فـي حين أن 5٪ فقط خصصـت لمهام جديدة، مرافقة الخيول، وحراسة الماشيـة، أو الترفيه عن الأطفال وما شابه.

ويتوقـع التقريـر أن يستمـر عـدد الحمير فـي الارتفاع لأسبـاب عديدة، منهـا انتشار مشاعـر الرفق بالحيوان في البلـدان التي فقدت الحاجة إليهـا، وازدياد السكان فـي الأرياف فـي العالم الثالث، وارتفـاع أسعار البدائل الميكانيكية بالنسبة إلى هؤلاء.

وفـي حين أن الحمار يعيش نظرياً (وعملياً) في البلدان الغربية ما بين 35 و40 سنة، يقول تقرير الفاو إن معدل عمـر الحمار في منطقة الشـرق الأوسط لا يتجاوز سبع سنوات. أما التفسير المخجل لهذا العمر القصير الذي يورده التقرير، فهو: سوء التغذية وسوء المعاملة.

حمار وعربة أم مسألة أخلاق؟

صور الحمار في الأدب
الحماقة لتعليم الحكمة

لو أجزنا لأنفسنا اختصار الحديث عن حضور الحمار في الأدب العالمي بكلمات قليلة -علماً بأن هذا الاختصار يهدر الكثير من الزخارف بالغة الأهمية- لقلنا إن آداب شعوب العالم استخدمت الحمار مادة لإلقاء موعظة أخلاقية أو فلسفية على الإنسان، أو تلقينه حكمة معينة. وعلى مدى عشرين قرناً تعددت أشكال ظهور الحمار في الأدب، فحضر في عشرات الأعمال التي خرجت من بيئتها المحلية إلى العالمية، لتصبح جزءاً مهماً من التراث الثقافي للإنسانية.

وبشكل عام، يمكن القول إن حضور الحمار في الأدب جاء في ثلاثة أشكال مختلفة:

أولاً: موضوع التحول، حيث يتحول إنسان ما إلى حمار، فيصبح مراقباً صامتاً لسلوك البشر، ويتحدث عن معاناته على أيديهم.. وفي هذه الحالة يكون الأديب نفسه هو المتقمص لشخصية الحمار.

ثانياً: الحمار المؤنسن، أي القادر على النطق ومخاطبة الحيوانات، وحتى التفكير ومخاطبة الفلاسفة.

ثالثاً: الحمار الواقعي، رفيق الإنسان في حياته اليومية.

الحمار الذهبي

إن أقدم رواية في التاريخ وصلت إلينا كاملة هي رواية «الحمار الذهبي» التي كتبها لوكيوس أبوليوس في القرن الثاني الميلادي (سبق للقافلة أن تناولتها في قسمها الأدبي في العدد 3 من المجلد 55 - مايو/يونيو 2006م).

تحكي هذه الرواية المستمدة من أصل يوناني، قصة رجل يتحول بفعل السحر إلى حمار، صاغها المؤلف بصيغة المتحدث وكأنها مذكرات. وإذا كان المؤرخون قد أولوا هذه الرواية أهمية كبيرة لجانبها التاريخي والفلسفي، فإن حيزاً كبيراً من قيمتها الأدبية يتمثل في قدرة الكاتب على تقمص شخصية الحمار وتصوير حياته وما يعانيه على أيدي البشر الذين تعاقبوا على امتلاكه ما بين واحد اشتراه، ولصوص سرقوه.. فكتب في هذا الإطار صفحات مؤثرة عن الظلم والقسوة (راجع الإطار: مشاعر حمار).

لم يكن حضور الحمار في قلب أقدم رواية وصلت إلينا محض صدفة. فرواية لوكيوس أبوليوس هذه قريبة جداً من رواية أخرى كتبها لوقيانوس السميساطي (القرن الثاني بعد الميلاد) وعنوانها «لوكيوس والحمار»، ومن المرجح جداً أن هاتين الروايتين تستوحيان قصة ظهرت قبل عصرهما ومؤلفها هو لوكيوس البتري، (من البتراء) حسبما يقول أحد علماء القرن التاسع الميلادي ويُدعى فوتيوس، بعدما اطلع على هذا الأصل الذي لم يصل إلينا.

وعند ماكيافيلي وشكسبير

وفي القرن الخامس عشر الميلادي بدأ ماكيافيلي بإعادة كتابة رواية أبوليوس نفسها (عام 1475م) ولكنه لم يكملها. وفي نسخة ماكيافيلي غير المكتملة هذه نرى أن البطل الذي تحول إلى حمار يلتقي بصديق له وقد تحول إلى خنزير يرفض العودة إلى هيئته الآدمية السابقة، لأنه يأخذ على الإنسان طموحاته وقسوته وميله إلى حياة الترف.. فيقول: «إن الخنزير لا يعذِّب خنزيراً، وحده الإنسان يقتل إنساناً آخر ويعذبه وينهب خيراته. لماذا يكون الإنسان نمراً بالنسبة إلى إنسان آخر؟ إنه حر. لماذا يختار الإنسان عن طيبة خاطر أن يكون شريراً بدلاً من أن يكون طيباً؟».

والواقع أن موضوع التحول هذا راج على نطاق واسع في عالم الأدب. ففي «حلم ليلة صيف»، لوليم شكسبير، نرى أن شخصاً يُدعى بوتوم قد تحول رأسه إلى رأس حمار، وتبلغ العقدة ذروتها عندما يُحكم على الملكة تاتيانا أن تحب أول رجل تراه عندما تستيقظ من نومها.. وكان أن وقع نظرها على بوتوم.. فيسارع الملك أوبيرون إلى معالجة المشكلة، ويعود بوتوم إلى هيئته الآدمية. ولأن هذا الأخير كان يعمل أيضاً في التمثيل واعتاد تقمص شخصيات مختلفة، لم تترك كل هذه التحولات أي أثر في نفسه.. فالقضية كانت مجرد حلم.. وبخلاف حمار أبوليوس الذي يثير الكثير من التعاطف، فإن حمار شكسبير هذا يثير النفور بسبب قبح الشكل في رأس حمار على جسم إنسان.

منمنمات فارسية تزيّن كتاب كليلة ودمنة

حمار كليلة ودمنة.. أساس مدرسة أدبية

خلال القرن الثامن الميلادي، ترجم ابن المقفع إلى العربية كتاب «كليلة ودمنة» لمؤلفه الهندي بيدبا (من القرن الرابع قبل الميلاد) ويتضمن هذا الكتاب، كما هو معلوم، مجموعة حكايات أبطالها من الحيوانات البرية والداجنة الذين يتفاعلون فيما بينهم وكأنهم من البشر، وتهدف كل حكاية إلى إلقاء موعظة أو استخلاص حكمة معينة، ولذا سميت كل حكاية «مثلاً».

وفي مَثَلِ «الأسد وابن آوى والحمار»، يظهر هذا الأخير بصفتين: المظلوم والأحمق. فهو مظلوم لأنه يقول عندما يسأله ابن آوى عن سبب هزاله: «لسوء تدبير صاحبي، فإنه لا يزال يجيع بطني ويثقل ظهري، وما تجتمع هاتان الحالتان على جسم إلا أنحلتاه وسقمتاه..». وهو أحمق لأنه تعرض للخديعة نفسها مرتين على يد ابن آوى، فبعدما نجا في المرة الأولى، قتله الأسد في المرة الثانية.

ما يهمنا هنا هو أن بيدبا أسس لمدرسة أدبية، كان لابن المقفع الفضل في نقلها عبر العربية إلى أوروبا، حيث ازدهرت وعاشت قروناً طويلة، فنُسج عدد لا يحصى من الأعمال الأدبية على المنوال نفسه.

في العام 1180م، كتب نايجلوس ويركر في كانتربوري «مذكرات مجنون» حيث نرى أن حماراً يدعى برونيلوس يهرب من مزرعة سيده ليحصل لنفسه على «ذيل بجمال أذنيه»، فيُطعم ذيله للكلاب، ومن ثم يلتحق بجامعة السوربون عشر سنوات حيث لم يتعلم أكثر من القول «هي! هان».. وبعد سلسلة مغامرات يعود برونيلوس هذا إلى قبضة صاحبه الذي يقطع له أذنيه الجميلتين.. والعبرة التي يلقيها المؤلف في حكايته هذه هي، استناداً إلى قناعة الحمار في النهاية، «إن من يُخلق حماراً، يجب أن يبقى كذلك..».

وفي القرن السابع عشر، ظهرت «الفلسفة» نفسها عند الكاتب المسرحي الفرنسي موليير، الذي عندما تعرض لغضب الجماهير في مدينة ليموج التجأ مع فرقته المسرحية عند سيد مقاطعة تدعى أمبازاك، حيث لقي معاملة مذلة على يد هذا الإقطاعي الذي أبلغ الأديب عزمه على إنشاء «أكاديمية» جديدة. ولاحقاً انتقم موليير من هذا الإقطاعي بأن أرسل له اثني عشر «أكاديمياً» من الحمير.. وكتب فوراً (عام 1669م) مسرحيته «مسيو دي بورسونياك» وبطلها رجل برجوازي وتافه يطمح إلى لعب دور ثقافي.. أما مقاطعة أمبازاك فأسست «أكاديمية الحمير» التي نظمت مهرجاناً سنوياً يجمع محبي الطرائف والضحك من كافة الأرجاء القريبة منها.

الأحمق والحكيم والجبان

غير أن ذروة الأدب الـذي أنسن الحمار لإلقاء المواعظ والحكم، كانت في أعمـال الشاعر الفرنسي جان دي لا فونتين الذي كتب ثلاث مجموعات من الحكايات الشعرية (في الأعوام 1668 و1678 و1694م) عرف كيف يسخِّر فيها الحيوانـات لتوجيه أقسى أنواع النقد لأحوال المجتمع الفرنسي وقيمه وعاداته آنذاك.

ويذكـر لافونتيـن مصادره: حكايـات إيزوب (القرن السابـع قبل الميلاد) وفيـدر (القـرن الأول) وبيدبا الهندي. ويظهر الحمار فـي أعمال لافونتين فـي أشكال عديدة. فهـو ضحية عاجزة فـي «سارقو الحمـار»، وحكيم في «العجـوز والحمار» حيث يقول «عدونا هو سيدنـا!»، ومعتد بنفسه بغباء في «الحمـار حامل الذخائـر»، وجبان فـي «الأسد العجوز» حيـث لا يتردد في رفـس أسد محتضر.. وأحياناً يجمـع لافونتين في الحمار جملة صفات مثل الجبن والحماقة والحكمة كما هو الحال في حكاية «الحمار حامل الإسفنج والحمار حامل الملح»، حيث ينجو الحمار من الغرق بسبب حماقته!

أمـا الحمـار عنـد جـورج أورويـل الذي كتـب فـي العـام 1945م «مزرعة الحيوانـات»، فإنـه لا يضحك أبـداً «لأن ما من سبب يدعـو إلى ذلك». فهو لا يفهـم لماذا نصَّب الإنسان نفسه سيـداً على كل الحيوانات، في حين أنه الوحيد الذي يستهلك من دون أن ينتج لا بيضاً ولا حليباً.. وفي هذه المزرعة ينشـئ الحيوانات «جمعية مساواة»، ولكن الخنازير الذين أمسكوا بالسلطة علـى الجمعية أعلنـوا «أن بعض الحيوانـات متساوية أكثر مـن غيرها».. وحـده الحمار في هذا العمـل المتخيل يُظهر شيئاً مـن الإحساس بالشفقة والعاطفـة، عندما يقف ليطرد بذيله الذباب الـذي راح يحوم على صديقه الحصان مالابار خلال احتضاره، وبعدما تخلى عنه الجميع.

حمار جحا واقعي.. أما الحكاية..؟

أمـا الشـكل الثالث الـذي ظهر الحمـار به فـي الأدب، فهو شـكل الحيوان الواقعي، رفيق الفلاح ومطية الفقير.. فإلى جانب دون كيشوت على حصانه هنـاك خادمه سانشو بانزا على حماره.. ولكن هذا الحمار الذي هو مجرد أداة نقـل ومطيـة، وعاجز كما هـو في الواقع عن الـكلام والتعبير، لم يكن دومـاً بطـل قصة واقعيـة، بل أقرب إلـى أن يكون ممثلاً مساعـداً في عمل سينمائي. وأشهر الحمير في هذا المجال هو حمار جحا..

فـي نوادر الشيـخ نصر الدين جحـا الرومـي، يشغل الحمـار دور البطولة الثانيـة من دون منازع إلى جانب البطل الأول جحا. وحمار جحا واقعي، أي انه مجرد حيوان أليف يرافق صاحبه ويشاطره مغامراته كما في أي مجتمع زراعـي أو قروي. ولكن هذا الحيوان الذي لا يتكلـم ولا يكاد يشعر حتى أنه ينزل إلى مستوى «الشيء»، يستخدم ببراعة لإظهار حماقة الإنسان وطباعه المختلفة. ولعل أشهر حكايات جحا مع الحمار هي التي تحمل العنوان: «من يسلم من لسان الخلق للّه درُّه». (راجع نصها كاملاً في الإطار في الصفحة 96).

يشـار إلى أن هناك شكوكاً في أن تكون هذه الحكاية أصلاً من نوادر جحا. إذ انها تحظى بشهرة عالمية، وكتبت أكثر من مرة في أكثر من مكان. وكان من الذين كتبوها في القرن السابع عشر لافونتين نفسه.

حمار جحا واقعي، أي انه مجرد حيوان أليف يرافق صاحبه ويشاطره مغامراته كما في أي مجتمع زراعي أو قروي. ولكن هذا الحيوان الذي لا يتكلم ولا يكاد يشعر حتى أنه ينزل إلى مستوى «الشيء»، يستخدم ببراعة لإظهار حماقة الإنسان وطباعه المختلفة.

مَن يسلم مِن لسان الخلق لله درُّهُ

ذهب جحا وابنه، يوماً إلى إحدى القرى وأركب ابنه على الحمار، فصادفه أحدهم فقال: أفٍ من هذا الزمان، انظروا كيف يركب هذا الغلام براحةٍ ويترك والده الشيخ الفاني يمشي على قدميه.

فقال الولد: يا أبي ألم أقل لك اركب أنت فلا تعاندني. فركب الشيخ، ونزل الغلام، فصادفهما جماعة فقالوا: أيليق بهذا الشيخ الذي قويَ جسمه وعرك السنين أن يدع هذا الغلام الغضَّ يمشي وهو يركب؟

فأخذ الشيخ ابنه من يده وأركبه وراءه، وما سار قليلاً حتى صادفهما آخرون، فقالوا: تأملوا يا ناس في إنصاف هذا الرجل كيف يركب ويُردِفُ ابنه على هذا الحمار الضعيف.

فغضب الشيخ ونزل هو وابنه وساقا الحمار يرمحُ أمامهما وهما يمشيان بذلك الحر المحرق، فصادفهما جماعة فقالوا: اللّه اللّه من هذين يتركان الحمار يرمحُ، وهما يمشيان في هذا الحر الغبار.

فقال الشيخ: يا هؤلاء مَن يسلم مِن ألسنة الخَلقِ فلله درُّهُ.

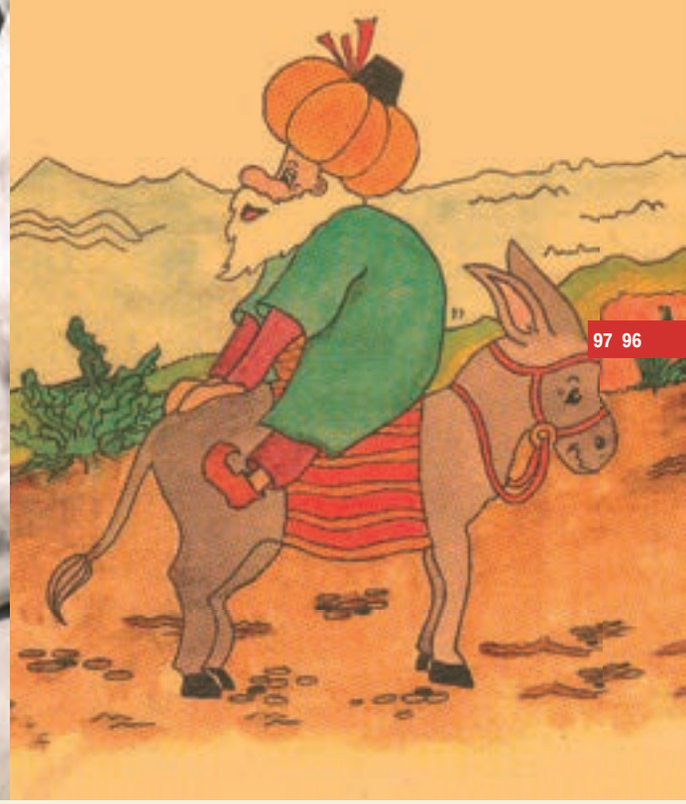

حمير الحكيم

وفـي ختام هـذا الفصل، لا بد من التوقف أمام الظهـور المميز للحمار في أعمال واحد من أعمدة الأدب العربي في القرن العشرين، ونقصد به توفيق الحكيم. كتـب الحكيم كتابين، احتل الحمار مكانه علـى عنوانيهما. وثاني هذين الكتابين (نترك الأول موقتاً) هو «حماري قال لي».

فـي هذا الكتـاب هناك حمار مؤنسن يتحدث مـع الحكيم ويحاوره حول كل شيء بـدءاً بأحـداث الساعة وشخصياتهـا مثل هتلـر وموسولوني ومؤتمر الصلـح وصولاً إلى جملة قضايا اجتماعية مثل حقوق المرأة وحزب النساء ومـا شابه (وقد طُبـع هذا الكتاب عام 1945م، أي فـي عام انتهاء الحرب العالميـة الثانيـة).. والواقع أن المؤلف لم يضف شيئـاً جديداً إلى المنهج الأدبـي في هذا الكتـاب، فالحمار الناطـق ذو السلوك الآدمـي، هو مجرد ذريعة أو أداة تسمح للمؤلف أن يدلي بما في جعبته تجاه مسائل العصر.

ما يهمنا في هذا الكتاب جاء في مقدمته، حيث يروي الحكيم تاريخ علاقته بالحمير وتعاطفـه معها، والدور الذي لعبته في حياته.. ونقتطف منها هذه الفقرات اللافتة والجميلة.

يقـول الحكيم: «الحمـار له في حياتي شـأن.. لقد عرفته منـذ صغري في صـورة جحش جميـل اشتراه لي أهلـي بثلاثين قرشاً، وجعلـوه لنزهتي في الريـف وكانت لـه برذعة صغيرة حمـراء لا أنساها.. وكنَّـا خير رفيقين لا نفتـرق إلا للنوم. فقد كان في مثـل سني، أي في طور الطفولة من فصيلته، كما كنت أنا في طور الطفولة في جنسي...».

وبعد أن يتحدث عن تركه هذا الحمار لمصيره، بسبب انهماكه في الدراسة، يـروي قصة الحمار الثاني، فيقول: «ثم بلغـتُ مرحلة الشباب، وفرغت من الدرس، واشتغلـت بتأليـف الروايـات التمثيليـة. فلم يفتنـي أن أجعل من الحمـار شخصية في رواية لي؛ فظهر على المسـرح، ولم أره للأسف. فقد كنـت قد غادرت مصـر، وذهبت إلى أوروبا. فجاءتنـي الأخبار بأن الحمار أدَّى واجبـه علـى أكمـل وجـه، وقام بـدوره في الروايـة على نحـو يستحق الإعجـاب.. ولكنه نظر بعد ذلك إلى جمهـور المشاهدين نظرة عميقة، ثم فعل فعلة غير لائقة لوثت خشبة المسرح.. وخرج بين سخط الممثلين وهرج النظـارة والمتفرجين. وقد بلغني أن ضُـرب عندئذ وطُرد وأهين، ولو كنت أنـا حاضراً لدافعت عن ذلك المسكيـن. وأغلب ظني أنه أدرك بغريزته أن الجمهـور لم يفهم الرواية، فناب عني في إظهار احتقاره له بالطريقة التي رآها مواتية».

وبعـد ذلك يتحدث الحكيم عن الحمار الثالث فيقـول: «بعد عشرين عاماً، رأيت الجحش مرة أخرى في شوارع القاهرة، واشتريته بثلاثين أو خمسين قرشاً مرة أخرى.. ولكن هيهات.. لقد كان هو في طفولته وأنا في كهولتي.. فلم يكن بيننا غير صمت طويل انتهى بموته». وحول هذا الحمار كتب توفيق الحكيـم كتابه الأول «حمار الحكيم»، الذي يـروي فيه بأسلوب واقعي قصة الرابطـة العاطفية التي جمعته إلى هذا الحمـار، والحياة التي عاشها هذا الأخير بين القاهرة والريف.

«الحمار له في حياتي شأن.. لقد عرفته منذ صغري في صورة جحش جميل اشتراه لي أهلي بثلاثين قرشاً، وجعلوه لنزهتي في الريف..»

أما في حديثه عن الحمار الرابع، الذي التقاه الحكيم ذات مرة أثناء زيارة قصيـرة للريف فـي أحد الأعيـاد، فيصوِّر أديبنـا القسوة التـي يُعامَل بها الحمـار في أريافنا، والتي أبقت ذكرى هذا الحمار ماثلة في ذهنه رغم أنه لم يلتق به إلا يوماً واحداً.

فعندمـا كان فـي طريقـه بصحبة بعض الفلاحيـن إلى جـدول ليصطاد السمـك، وأحس بالتعب، شاء الفلاحون أن يساعدوه.. «ولم يجدوا لي حيلة غيـر وضعي على صهوة حمار من حمير التـراب كان يعمل في حقل قريب. لـم أرَ واللّه فـي حياتي أتعـس ولا أشقى من ذلك الحمـار. كان الدم يقطر مـن ظهره، لثقـل «الغبيط» وهزال جسمـه، وبروز عظمـه، ولا أحد يرحم. وكان يتضـور مـن الجوع ويمد بـوزه إلى كل عود أخضر يجـده في الطريق، فـلا يلقى غير اللكم ممـن يقودونه، ولا يظفر بغير اللطـم.. لقد كان ذلك الحمـار ملكاً لبعض المستأجرين الفقراء من الفلاحيـن الذين لا يملكون للحميـر قوتـاً، ولا يدَّخرون ما عندهـم من «العليـق» إلا للجاموسة والبقرة التـي تدر اللبن. أما الحمار فهو فـي نظرهم لا يساوي أكله. وهو يُذكر عند المهمـة العنيفـة والعمل الشـاق، ولكنه يُنسى عنـد الأكلـة النظيفة؛ فعلى المسكين إذن أن يلتقط ما يصادف في طريقه من عشب مهمل أو ورق زرع متـروك، وليتهـم مع ذلك يدعونه يفعـل.. فهم يدفعونه فـي ظهره بالعصا كلما تباطأ قليلاً لالتقاط رزقه من الأرض بحجة أنه يتلكأ ويتلاكع ويتكاسل عـن عمله المفروض. أما إذا حدثته نفسـه اللعينة، فمال برقبته على حقل للـذرة، وفقد رشده وخرج عن وعيه، وجر بأسنانه عوداً منها أو كوزاً دانياً، فهـي الطامة التي ما بعدها طامة.. فإن الصيـاح يعلو من كل جانب ويهرع أصحاب الزراعـة بالهراوات ينهالون بها علـى المسكين وهم يتصايحون: حوشوا الحمار نزل غيط الذرة..».

وبعـد أن يروي الحكيم أنـه أحسن إلى الحمار وعاملـه باللين، يقول: «ولم تمضِ أيام حتى سمعـت أن ذلك الحمار قد نفق جوعاً، وسقط إعياءً وسط الحقـل، رازحاً تحت أثقال ما يحمل من تراب.. فألقى الفلاحون بجثته في المصـرف، ولـم يكلفوا أنفسهم حتى مؤونة دفنـه، وضنوا عليه حتى بذلك التراب الذي قضى حياته التعسة كلها في حمله على ظهره».

ويختتـم مقدمة كتابه بالقول إن الحمار الذي يحدثـه في هذا الكتاب ليس واحـداً بالذات من بينهـا (هذه الحميـر الأربعة). «إنه جميعهـا، إنه كلها مجتمعة في واحد.. إنه أي حمار رأيته أو لم أره».

مشاعر حمار

على الرغم من أن رواية «الحمار الذهبي» تعود إلى القرن الثاني الميلادي، فإن أشكال المعاملة الظالمة التي يتعرض لها الحمار على أيدي البشر، وكما هي مصورة في هذه الرواية، تبدو مألوفة جداً عند أبناء جيلنا الحاضر ممن خبروا الحياة في المناطق الريفية والزراعية، حتى يمكن القول إن هذه المعاملة لم تتغير بتغير الأزمان ولا الأماكن، وشكل هذه المعاناة هو واحد وأبدي. يقول المؤلف لوكيوس أبوليوس على لسان الحمار في بعض الصفحات التي نقتطفها على سبيل المثال:

«..انتدبت لنقل الحطب من الجبل، وعيِّن رئيساً لي شابٌ شرير من جميع نواحيه، فلم يكفه أن يتعبني الجبل بعلوه ووعورته، ولم يكفه أن تجرح الحجارة المسننة حوافري، وإنما راح يضربني بهراوة دون انقطاع، حتى أن ألم ضرباته كان يخترق جسمي حتى النخاع. وبما أنه كان يلهب بضرباته جانبي الأيمن على الدوام، وينزلها في الموضع نفسه، فقد فتق جلدي وأحدث فيه ثقباً أو قرحة واسعة، ولم يكن يتوقف عن ضرب الجرح الذي كان يقطر دماً. وكان يُحمِّلني عندها حملاً من الحطب، يخيل للمرء أنه رزمة قد أُعدت ليحملها فيل لا ليحملها حمار. وما أن يفقد الحمل توازنه ويميل إلى جانب، حتى يلتقط الحجارة ليضربني بها، بدل أن ينزع من الحمل المنزلق بعض الأعواد ويريحني من ضغطه لأسترد أنفاسي أو يضعها فوق الجهة الأخرى لإحداث التوازن على الأقل..

ولم يرضه هذا الخطب الذي ألمّ بي، وجعلني أحمل ما تجاوز الحد من الحطب، وإنما حين وصلنا إلى مجرى مائي يسيل بمحاذاة الطريق في اتجاه الوادي، كان علينا أن نقطعه، جلس فوق ظهري ليحفظ نعليه من البلل. كان وزناً خفيفاً بالنسبة إلى ما كنت أحمله بطبيعة الحال! وإذا حدث مرة حقاً وعجزت، لأن الطين الموحل يجعل صفحة الماء لزجة، عن مسك الحمل وزلقت، كان في وسع الحمار في هذه الحالة أن يسرع إلى مساعدتي، فيجرني من اللجام أو من ذيلي لأقف، أو يخفف من حملي على الأقل إلى أن أنهض ثانية من كبوتي، فإنه لم يساعدني على ما أنا فيه من عناء، بل كان ينهال عليَّ بهراوة كبيرة ويضربني فوق رأسي، بل فوق أذني بصورة خاصة، إلى أن تنهضني هذه الضربات بدل أن ينهضني التخفيف عني!

لقد فكر الوغد في المكر بي على الوجه التالي أيضاً: كان يأخذ حزمة من الأشواك الحادة، التي تنطوي على السموم، ويربطها بخيط معقود، ويثبتها في ذيلي بوصفها آلة تعذيب معلقة. فإن أنا مشيت، تحركت وترنحت وجرحتني بإبرها القاتلة بشكل مرعب! وهكذا كان عليَّ أن أختار بين شرين: عندما أخب لأتجنب ضرباته الرهيبة، تتأرجح الأشواك وتخزني بشكل أشد. وعندما أتوقف قليلاً لأخفف من ألمي، ترغمني ضرباته على الجري. وكان يبدو أن هذا الوغد الحقير لا يفكر في شيء غير كيف يتم له القضاء عليَّ على هذا النحو أو ذاك. وقد أقسم على ذلك وهددني أكثر من مرة.

قبعة الحمار

يقول الباحثان يونغ دين وألكسندرا دايفيد-نيل في كتابهما حول «بلاد ما بين النهرين» إن أذني الحمار كانتا رمزاً للمعرفة والحكمة عند شعوب هذه المنطقة قديماً، وذلك أمرٌ بديهي في عصر كان تناقل المعرفة فيه يتم شفهياً. والأذنان الكبيرتان كانتا رمزاً للإصغاء الجيد.

وينطبق الأمر نفسه على شعوب التيبت ومونغوليا وفق ما يرويه غوبرناتيس في كتابه «أساطير في علم الحيوان». ولكن يبدو أن للشعوب الغربية وجهة نظر مختلفة في أذني الحمار.

تقول إحدى الأساطير الإغريقية أن ميداس أثار غضب أبولون ذات مرة، بسبب تفضيله للموسيقى التي يعزفها بان على موسيقى أبولون، فقام هذا الأخير بمعاقبته وتحويل أذنيه إلى أذني حمار. ويبدو أن هذه النظرة السلبية هي التي انتصرت في النهاية على النظرة الشرقية. وأصبحت أذنا الحمار رمزاً للغباء وعقاباً للأغبياء.

فحتى بدايات القرن العشرين، ظلَّت الكثير من المدارس الأوروبية، وفي إطار تربية لم يعد هناك من يجرؤ على الدفاع عنها، تحكم على التلميذ الذي يرتكب حماقة معينة، أو يرسب في دراسته، بارتداء قبعة من ورق كتب عليها «حمار».. لإثارة سخرية رفاقه منه.

الحمار في الفلسفة

حمار بوريدان

في العام 1977م، ترجم صنع الله إبراهيم رواية كان قد ألَّفها ونشرها الأديب الألماني المعروف غونتر دي برون قبل ذلك بنحو تسع سنوات، وعنوانها «حمار بوريدان». ولأن المترجم أو الناشر (دار ابن رشد) ارتأى أن القارئ العربي لن يفقه معنى «حمار بوريدان»، جاءت الترجمة العربية بعنوان «الحمار» فقط. وهذا ما يدفعنا إلى الحديث عن حمار بوريدان لمن لا يعلم.

شهد القرن الرابع عشر الميلادي خلافاً فلسفياً حول «سلامة الاختيار الحر عند الحيوان»، أي حول ما إذا كان الحيوان قادراً على المفاضلة ما بين أمرين بشكل سليم. ولحسم الجدال، قام جان بوريدان الذي كان يشغل منصب عميد جامعة السوربون بين العامين 1328 و 1340م بتجربة حضرها ممثلون من الاتجاهين الفلسفيين المختلفين.

قضت تجربة بوريدان منع الطعام والماء عن حمار مدة طويلة، ومن ثم الإتيان به إلى مسرح التجربة ووضعه بين دلوين، أحدهما مليء بالماء والآخر بالشعير. فلم يتردد الحمار لحظة، إذ توجه أولاً إلى الماء ليشرب، ومن ثم إلى الشعير ليأكل، كما يفترض المقتنعون بسلامة الاختيار الحر عند الحيوان. ولكن المعترضين على هذه النظرية رفضوا نتيجة التجربة، واعتبروها محض صدفة، وبقوا على موقفهم الذي انتصر له لاحقاً الملك لويس الحادي عشر، مهدداً الفريق الآخر بالمنع في بيان خاص بهذه القضية صدر في مدينة سانليس في الأول من مارس 1473م.

ما يهمنا من هذا أن الثقافة الشعبية لم تكترث للنقاش الفلسفي ولا لتجربة العميد بوريدان كما حصلت بالفعل، بل زعمت أن الحمار ظل حائراً بين شرب الماء وأكل الشعير حتى قضى جوعاً! وخرج «حمار بوريدان» بذلك من الفلسفة إلى الثقافة الشعبية رمزاً للتمزق الناجم من عدم القدرة على الاختيار.

تصنيف ديكارت غير الموفق

ولكن ما نراه اليوم على أنه ترف فكري، لم يكن كذلك في العصور الوسطى. إذ لم يكن العلماء والفلاسفة على استعداد لتقبل الفكرة القائلة بأن حيواناً وضيعاً وحقيراً مثل الحمار قادر على اتخاذ القرار السليم بشكل حر. فحتى الفيلسوف الفرنسي ديكارت لم يعترض على هذا المنحى، إذ أنكر في كتابه الشهير «خطاب المنهج» (1637م) على الحيوانات كل أشكال التفكير، وأنزلها إلى مستوى «الساعات الميكانيكية» على حد تعبيره. ولكن الحمار الذي يتعرض للتعذيب قد يرفس ويعض من يقترب منه، خشية تكرار التعذيب.. فهل رأى أحدنا ساعة ميكانيكية تعض يد الساعاتي إذا عاملها بخشونة؟

حمار فيكتور هوغو يواجه كنط

في القرن التاسع عشر، حضر الحمار على أقرب مسافة من الفلسفة، إذ أجلسه فيكتور هوغو، صاحب «البؤساء» و «أحدب نوتردام»، في مواجهة الفيلسوف عمانوئيل كنط.

أمضى هوغو مدة طويلة من الزمن في كتابة قصيدته المسماة: «الحمار». وفي هذه القصيدة نستمع إلى حمار يدعى «باسيانس» (أي صبر بالفرنسية) يحاور على مدى خمس وستين صفحة الفيلسوف كنط، الذي كانت مكانته الفكرية في ذروتها آنذاك.

يرسم الحمار في هذه القصيدة، من خلال مرافعته العنيفة والانفعالية، صورة للإنسان الميؤوس منه. ولا يجد عذراً وجيهاً يسوِّغ تصرفات هذا الإنسان. فيقول إن العلم ينحني أمام السياسة. ويتحدث عن إحراق العالمين جيوردانو برونو وكامبانيلا بدلاً من الاستماع إلى استجوابهما، ويشير إلى غاليليو الذي تنكر ليقينه العلمي خوفاً من المصير نفسه. ويرى «صبر» أن الإنسان الصغير يتحول إلى وحش بعد بضع سنوات من التربية التي تغتال فيه براءته ولا تعلِّمه غير المكر والشر، ويعلن استعداده للتبرع بكل كتبه مقابل شيء من طيبة القلب، إذ انه يفضِّل الإنسان «الجاهل والغبي والأعمى على شرط أن يكون طيب القلب». ولا يجد الفيلسوف كنط أية حجة عقلانية يقارع بها مرافعة الحمار الانفعالية، فيعلن في نهاية القصيدة اقتناعه بصواب آراء الحمار، ويعبِّر عن قلقه من صورة الإنسان: «عالِمٌ ولكنه خبيث، جبانٌ أمام الكبار، ولكنه من دون رحمة أمام المساكين..».

وبعد عام على قصيدة «الحمار»، كتب هوغو «الضفدع»، حيث يروي أن حماراً كان يجر عربة عائداً بها إلى المزرعة بعد نهار شاق تعرَّض فيه للكثير من الضرب، فصادف في طريقه ضفدعاً كان بعض الأولاد القساة قد سمَّروه على الأرض، ويستعدون لقتله بدحرجة عجلة فوقه. ولكن الحمار يستجمع ما بقي لديه من قوة لتغيير مسار العجلة القاتلة، وإنقاذ شقيقه في البؤس من الموت. ويستخلص هوغو «أن هذا الحمار هو أنبل من سقراط وأعظم من أفلاطون».

الحمار في الفن
الحضور الكبير في الأعمال المجهولة

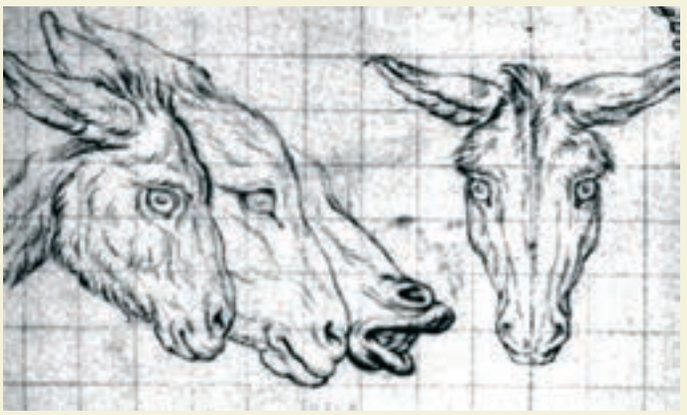

«دراسات» للرسام الفرنسي شارل لوبرون

انســاق إنكار الحمار عند العامة على المثقفين في تطلعهم إلى الفن، ولكن لحسن الحظ، ليس على الفنانين، لا سيما الكبار منهم.

فحتى لــو وضعنا جانباً اللوحات والرسوم التي يظهــر فيها الحمار عَرَضاً، أو عنصــراً ثانويــاً في اللوحــة، وأخذنا فقــط الأعمال التي يشــكِّل الحمار موضوعهــا، لوجدنا أن عددها أكبر من أن يُحصى، والمدهش في الأمر هو مستوى الفنانين الذين أولوا الحمار هذه المكانة.

فمن الصين إلى البلاد العربية ظهر الحمار في عشرات الرسوم التي تزيِّن كتب الحيوان، ولعل أشهرها رسوم التزيين في كتاب «كليلة ودمنة». وإن كان حمار كليلة ودمنــة يظهر دوماً رمادياً، فإن الرسوم الإسلامية التي أُنجزت في آسيا الوسطــى، لطالما أظهرت الحمار الأحمر الذي كان يستوطن تلك المنطقة.

أمــا في أوروبا، فإن معظــم رسَّامي الصف الأول رسمــوا الحمار إما هدفاً فــي ذاتــه، أو في لوحة هو أحد أبطالها. فقد رســم الألماني البريخت دورر فــي العام 1495م سلسلة من الأعمال الحفرية عنوانها «صومعة المجانين» وملأهــا برسوم لحمير شاردة الذهــن ومثيرة للسخرية كما هو حال الناس الذين هم من حولها.

وفــي العام 1556م، رسم بيتــر بروغيل «الحمار في المدرسة» في لوحة هي بدورهــا «موعظة»، حيث نــرى الأولاد يلهــون عن معلمهم، ووحــده الحمار يتطلع إليه بانتباه.

وفي ذروة العصــر الباروكي الإيطالي رسم بنديتــو كاستيليوني (1670م) رسمة «الحمار الذهبــي» المستوحاة من رواية أبوليوس. وفي الفترة نفسها تمامــاً انهمك شارل لوبرون، رسام سقف قاعــة المرايا في قصر فرساي، بإنجاز رسوم دراسية مقارنة لكل من وجه الإنسان ووجه الحمار..

أما حكايات لافونتين التي أشرنا إليها، فقد ألهمت الرسام أودري في القرن الثامن عشر، وغرانفيل ورابيه في القرن التالي.

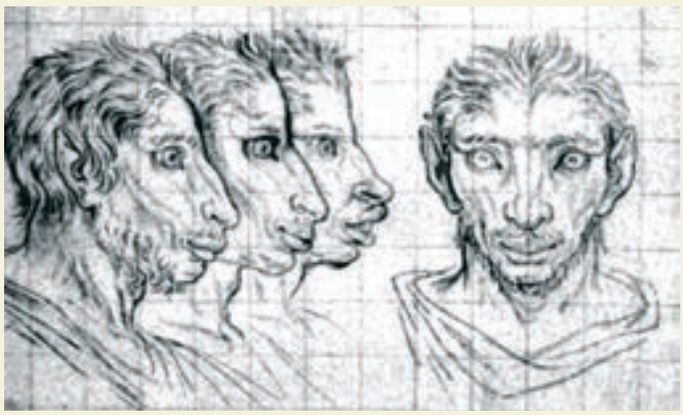

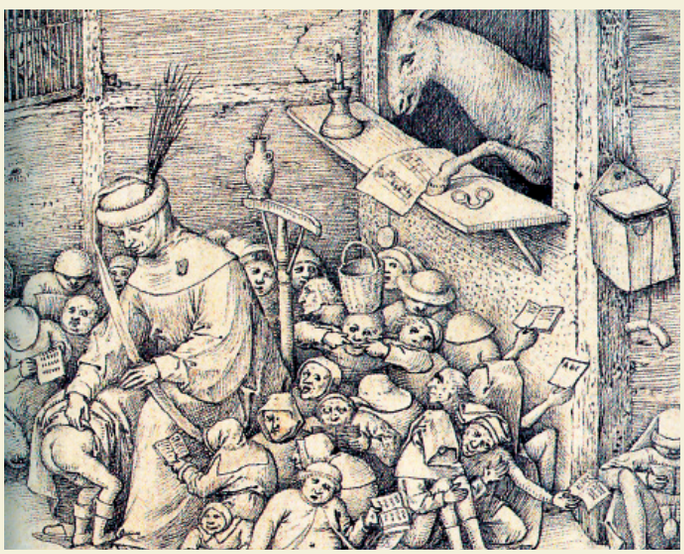

«الحمار في المدرسة»، للرسام الفلامنكي بيتر بروغيل

وكان الرســام الإسباني فرنشيسكو دي غويا رائداً في استخدام الحمار في الكاريكاتيــر السياسي، وطبعاً صورة للغبــاء والحماقة. فخصَّه باثني عشر رسمــاً من رسومه المعروفة باسم «نزوات». وهذا ما تبناه لاحقاً كل رسَّامي الكاريكاتير الأوروبيين خاصة في مرحلة الثورة الفرنسية وما بعدها.

وفي القرن التاسع عشر، بلغت مكانة الحمار ذروتها في فن اللوحة. أوجين دولاكروا يرسمه في لوحة مائية أشبه بالدراسة. ولكن هونوريه دوميه رسمه فــي واحدة مــن أشهر لوحاته على الإطــلاق ألا وهــي «دون كيشوت والبغلة الميتــة» حيث نــرى دون كيشوت على صهوة حصانــه، وخادمه على حماره، وأمامهما جيفة بغلة نافقة.

وإلــى ما تقــدم نضيف غوستاف دوريــه، غوستاف مــورو، وبيكاسو.. كلهم رسمــوا الحمار في لوحات زيتيــة خاصة به. كذلك حال مارك شاغال الذي رســم قصــة «الحمار حامــل الأسفنج والحمــار حامل الملح». مــن دون أن ننســى لوحــة سلفادور دالــي الشهيرة «الــدم والعسل» التي نــرى في إحدى زواياهــا حمــاراً متعفناً، يقول الرسام عنه إنه يشبــه الوردة.. وهذه اللوحة هي للمناسبة، أول ما أنتجه دالي للمدرسة السوريالية.

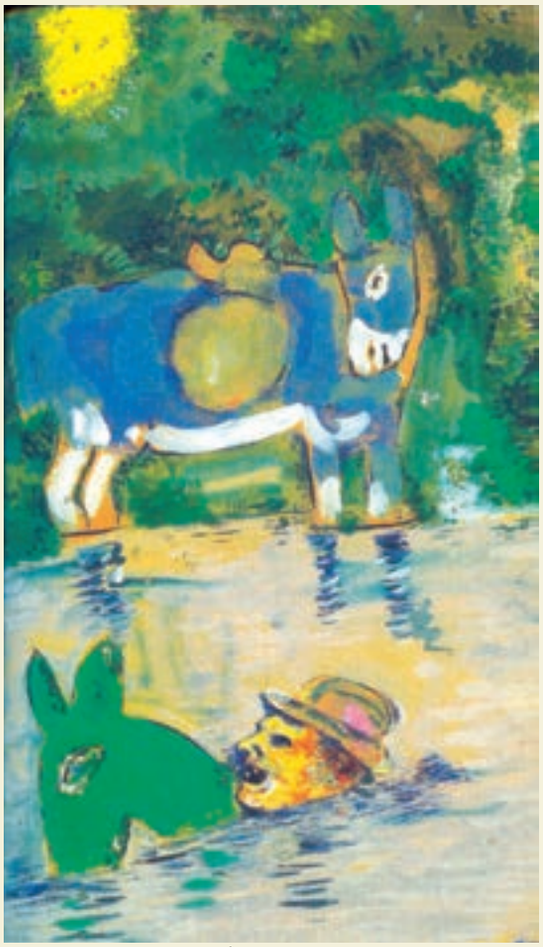

شاغال: «الحمار حامل الملح والحمار حامل الأسفنج»

هونوريه دوميه: دون كيشوت وخادمه أمام بغلة ميتة

بورونالي: فضيحة «الحداثة»

كان الكاتب والناقد الفرنسي رولاند دورجوليس يشعر بسخط كبير على حماس أصدقائه الرسامين وبعض الشعراء من أمثال أبولينير، للفن التكعيبي عند بدايات ظهوره. وكان يقول: «من السهل لفت الأنظار. يكفي أن يسير المرء على كفيه ورأسه إلى الأسفل. ولو شئت لأصبحت غداً رساماً».

ولإثبات رأيه، وكان ذلك في العام 1910م، استعار رولاند حماراً من صديقه فريدي، وبحضور كاتب عدل، غمس عدداً من فراشي الرسم في ألوان زيتية مختلفة، وربطها إلى ذيل الحمار، بعدما وضع تحت الذيل لوحة بيضاء. وأثار الكاتب الحمار من خلال إطعامه الجزر ولفافات تبغ، ليدفعه إلى تحريك ذيله الذي كان يلطِّخ اللوحة بالألوان المختلفة.

سمى دورجوليس هذه اللوحة «وتغيب الشمس تحت بحر الأدرياتيك»! وفي اليوم التالي، نشر ناقد صحافي متواطئ معه مقالاً في جريدة «لوماتان» يمتدح فيه هذه اللوحة «ورسامها الإيطالي الشاب المغمور بورونالي الذي أسس مؤخراً مدرسة حديثة تدعى الطفحية»!!

قبِلَ «معرض المستقلين» الشهير اشتراك هذه اللوحة. وتدافع أمامها النقَّاد، وزحفت باريس الثقافية بأسرها لرؤيتها. وانهالت التعليقات الجدية: «مزاج لوني لا يزال مضطرباً.. أستاذية مبكرة.. شخصية طاغية..». وقبل إقفال المعرض، نشر دورجوليس، بتصديق من كاتب العدل، القصة الحقيقية للوحة، ليصفع بها كل مدَّعي الفهم من النقَّاد و«الذواقة» المتبجحين.

ولم ينتبه أحد من كل هؤلاء الذين حاولوا استقصاء حقيقة الفنان الإيطالي الشاب بورونالي إلى أن هذا الاسم مؤلف من نصفي اسم «أليبورون» بعد عكسهما. وأليبورون هو اسم معروف منذ القرن الخامس عشر لحمار في غاية الغباء. فالشاعر رابليه سمى أحد المحامين «أستاذ أليبورون»، ثم أعاد لافونتين أعاد استخدام هذا الاسم في القرن السابع عشر في حكاية «اللصوص والحمار».

العلم الذي أنصف الحمار

إذا لـم يكن الجاحـظ صاحب أول دراسة علمية عـن الحمار، فما من شك في أن كتابه «الحيوان»، يمثل أول وأوسع دراسة وصلت إلينا كاملة، وتناولت الحمـار بهذا الشـكل الشامل والمفصل –في حـدود المعرفة كما كانت في القـرن الثالث الهجري– إذ جمع الجاحـظ في أكثر من 65 موضعاً في هذا الكتاب كل ما كان معروفاً عن الحمار حتى آنذاك.

وبعـد الجاحظ، دخـل الحمار طي النسيان العلمي نحـو عشرة قرون، حتى ظهـور عالم الطبيعيات دي بوفون في القـرن الثامن عشر الميلادي، الذي أكد استقلال نوع الحمار عن الخيل، وانتماء الاثنين إلى أصل واحد مشترك. وهذا ما أكدته الأبحاث الجينية التي تطورت بشكل كبير في العقود الأخيرة من القرن العشرين. فمن المعروف منذ القدم عن الحمار أنه حيوان ثديي، يبلـغ ارتفاعه عند الكتف نحو 1.2 متر. وتختلف ألوان شعره ما بين الأبيض والرمـادي والأسود مع وجود بعض خطوط السمـرة على الظهر. إذ أنتجت عمليـات التهجين سـلالات مختلفة من الحمير في اللـون والطول والحجم وطول الشعر.

ويستطيـع الحمار الإنجـاب عندما يبلغ الأربـع سنوات، أمـا الأتان فثلاث سنـوات. ويراوح حمل الإناث ما بين 11 و 14 شهراً (حسب السلالة)، لتلد بعدها جحشاً يزن 14 كيلوغراماً، أي أربع مرات وزن الطفل البشري. ويقف الجحشـن على قوائمه الأربع بعد ساعـة واحدة من ولادته. ويحفظ الجحش رائحـة أمه عند الـولادة، لا ينساها مدى عمره. وعلى الرغم من أنه يستمر في الاعتماد على حليب أمه للتغذية، فإنه في يومه الثالث يبدأ بقضم بعض الأعشاب الطرية.

ويمكـن للحمار أن يتزاوج مع أنثى الحصان (الفرس) لتنجب بغلاً. أما إذا تزاوجـت الأتـان مع الحصان، فإنهـا تنجب نغلاً. ولما كانـت البغال تتمتع بمواصفات جسمانية أفضل من النغال، فإن إنتاجهم يتم بأعداد أكبر بكثير. وغالباً مـا تجمع البغال إلى الحمير عندما يدور الحديث عن الحمار بشكل عـام. ولا تستطيع البغال الإنجاب بسبب خلل في عدد كروموزوماتها. ولكن تـزاوج بغلة من حصان أو حمـار يمكن في بعض الحـالات النادرة أن يولد حصانـاً أو حماراً حسب نوع الأب. ولكن إلى هـذه المعلومات المعروفة منـذ القدَم، أضـاف علم سلالات الحيـوان (Ethnozoology)، الذي تلقَّـى دفعاً كبيراً خلال العقـود الأخيرة، الكثير من المعلومات الجديدة المتعلقة بجسم الحمار ونفسيته أيضاً.

فقد أكدت الدراسات أن الحمار يستطيع أن يحمل على ظهره بسهولة ما يتـراوح بيـن 20 و 30٪ من وزن جسمه. أما قدرتـه على الجر فهي أكثر من ذلك. كما يستطيع أن يتحمل خسارة الماء من جسمه حتى ما يعادل 30٪ من وزنه، وهذا ما يجعله ملائماً للعيش والعمل في المناطق الجافة والصحراوية. ويستطيع أن يشرب ماءً يعادل 20٪ من وزنه خلال خمس دقائق من دون أن يصـاب بالغرق الداخلي. وفي حال فقدانه حتى 10٪ مـن ماء جسمه، فإن الحمـار الجائع يأكل أولاً ومن ثـم يشرب. أما إذا تجاوزت خسارته للماء 17٪ من وزنه، فإنه يشرب أولاً ثم يأكل.

أما جهـازه الهضمي فيسمح لـه باستخلاص المـواد الغذائية من أفقر أنـواع النباتات، ولـذا فهو يستطيع أن يتدبر أمره فـي الطبيعة إذا حُرِم من الكيلوغرامين من الشعير اللذين يحتاج إليهما كل يوم.

وبالمقارنـة مـع الخيـل، يمكـن لنهيـق الحمـار أن يصـل إلـى مسافة كيلومتـرات عديدة، أي أبعد مـن صهيل الخيول. كمـا أن حاسة السمع عنده أقوى، يساعده في ذلك طول أذنيه وقابليتهما للحركة والاستدارة. كمـا أن جبهتـه الأعرض مـن جبهة الحصـان، تسمح له برؤيـة أوسع. فزاويـة الرؤية عنده بعينين تصل إلى 70 درجة، أما الرؤية بعين واحدة فتصـل إلى 145 درجة. ولـذا يستطيع أن يرفس بدقـة شخصاً يزعجه على بعد متر واحد إلى جانب مؤخرته.

أمـا من الناحيـة النفسية، فيمكن اختصار ما توصـل إليه العلم بالقول إن مالكـي الحميـر باتوا يتحدثون منذ ثلاثة عقـود أو أربعة عن «تربية» الحمـار، بـدلاً من «ترويضـه» أو «تدريبـه».. إذ ثبـت أن للحمار ذاكرة مدهشـة في قوتها. فهو يذكـر طوال عمره المعاملة الجيـدة أو السيئة. وقادر على أن يتجاوب مع كل ما يُطلب منه باللين.

وفـي حين يرى البعض أن افتقار ظهـره لليونة يجعله مطية أقل طواعية من الحصان، والأمر يعود إلى نقص فقرة واحدة في عموده الفقري عمَّا هو في الحصان، فإن الحمار حذر أكثر من الحصان في حال وقوعه في مـأزق، كانزلاقه في الوحول أو محاصرتـه بأشياء خطرة كالأشواك. إذ يجمـد الحمار في مكانه بانتظار المساعـدة، أما الحصان فقد يتخبط للتخلص من المشكلة، بطريقة تشكِّل خطراً عليه وعلى راكبه.

وعلـى الرغم مـن أن الحمار المستأنس يبدو بطيئـاً نسبياً في حركته، فـإن الحمير التـي أعيـد إطلاقها في البـراري، اكتسبـت بسرعة كل مستلزمات الحياة البريـة، ومهارات الركض بسرعة الحمير الوحشية والخيول.